رد على الدكتور محمد النويهي

بين المادية الجدلية والانتقائية المثالية

بقلم محمد عيتاني

اود ان اقول بعض الكلمات عن الفصل الممتع ، الغني بالفوائد الادبية والتاريخية ، الذي عقده الناقد الكبير الدكتور محمد النويهي في العدد الماضي من « الآداب » ردا على رأيي في شطر من محاضرته « الشعر والحضارة » . واريد ، اولا ، ان اشكر بامتنان الكاتب الصديق ـ اجل ، لقد اسعدت لي معه صداقة في وجداني اثر قراءتي دراسته المسهبة ، على مدى عشر صفحات من « الآداب » بالحرف الصغير ، مع ان الدكتور النويهي تناول آرائي بكثير من النقد المرير ، واطال الحوار الصارم ، وصال وجال ، عن معرفة وثيقة ، في ساحة موضوع اعترف ، انا من جهتي ، بأنني لست مختصا فيه ، تكنني مثل آلاف من المثقفين العرب لست غريبا عنه تماما ، هذا وان رأيي الوارد في تعليقي من جملة استعراضي ابحاث احد اعداد « الآداب » الماضية ، لم يكن عن الابعاد الجديدة التي اضافها الدكتور مستكملا آراءه بصدد دور سوق « المربد » القديم ، وما كان يجري فيه من صراع بين قوى البداوة القبلية ، والحضارة الاسلامية ، في مجتمع صدر الاسلام . وبديهي انني حكمت على ما قرأته في القسم المنشور ، لا على الافكار التي كانت ما تزال في رأس الدكتور او على بطاقات فيشه . الا ان الروح الودية الاخوية التي اضفاها الدكتور النويهي على دراسته السجالية ، دون ان يتخلى عن اي من آرائه او اخطائه ، كما اعتقد ، تدعوني بادىء بدء لاوجه اليه شكري الجزيل . ثم استانف الحوار معه .

الدكتور يريد ان ينطلق من مواقع المادية الجدلية ، كما يقول ، في الدراسة النقدية والتاريخية للمسائل التي يعالجها من تاريخ ادبنا العربي ، وماضينا الثقافي والحضاري . وهذا امر يسر ، طبعا ، شخصا مثلي يريد هو ايضا ان يحمل باخلاص راية المادية الجدلية ، وهي الطريقة العلمية الاساسية ـ والوحيدة ـ الصالحة لدراسة حركة الطبيعة والمجتمع والفكر وتاسيس نضال انساني على اساسها لتغيير حياة الانسان نحو الافضل . ان ثناء الدكتور النويهي على النظرية المادية الجدلية هو تقييم ايجابي من ناقد عربي كبير ، ودليل على قوة جاذبية هذه النظرية العلمية . ولكن ارجو ان يسمح لي الدكتور النويهي بلفت نظره الى ان الجانب الحقيقي من النظرية او المنهج ، الذي كان ينبغي ان يلجأ اليه في تطوير موضوعه وصياغته على نحو علمي لا على نحو انتقائي ، نوادري ، يقوم خاصة واساسا على الاستشهاد بمتفرقات من الاحكام الشتيتة والابيات المأخوذة ، اعتباطا ، من هنا وهناك ، من ادب صدر الاسلام ، والعقود الاولى من حياة الخلافة الاموية ، اقول : ان الجانب الذي كان مخولا ان يخدم الدكتور في هذا المجال لتكون دراسته علمية حقا ، تأتي باسهام في جلاء نقطة او نقاط غامضة من تاريخنا الادبي والثقافي والحضاري القديم ، هو « المادية التاريخية » ، لا المادية الجدلية ، باطلاق . ان المادية الجدلية تتضمن المبادىء الابيتسمولوجية المعرفية والنهاجية الاساسية العامة للنظرية الماركسية . والدكتور النويهي سماها ، على كل حال ، في دراسته ولم نجد لها اثرا كبيرا في التطبيق لديه . هناك جانب من المادية الجدلية خاص بعلم تاريخ المجتمعات وحركة سيرها وتطورها ، كان يحسن بالدكتور ان يهتدي اليه ، ويستخدمه لاضاءة جانب من موضوعه الخطير والشديد التعقيد والكبير الاهمية . هذا الجانب ، كما سبق القول ، هو « المادية التاريخية » او « المفهوم المادي للتاريخ » . وكون الدكتور لم يخطر في باله لا ان يستخدم مقولات « المادية التاريخية » ولا ان يسميها مجرد تسمية عبر دراسته المسهبة ، هو دليل على ان المامه بالمنهج المادي الجدلي ، اجمالا ، وتفرعاته الاساسية لا يعادل حبه للحقيقة ، وغيرته على المعرفة . اقول : ان « المادية التاريخية » كان بمقدورها ان تخدم الدكتور في بناء دراسته وقيادة ابحاثه ، واضاءة قسم من موضوعاته ، التي لا بد من الاعتراف له بانه يمتلك فيها ولها كثيرا من المعطيات ـ ولو كانت تقتصر على الجانب الشعري ـ على التناقض والرجز ، وحدها ، لكنها معطيات نوعية (Spécifiques) مختصة تدخل في صميم الموضوع المطروح للبحث . قلت : اضاءة قسم فقط من موضوع دراسته لان الشطر الرئيسي في المادية الجدلية عامة ، مطبقا على هذا الموضوع ، هو من اختصاص علم الاجتماع الماركسي ، وعلم التاريخ ، والاناسة (*) (الانتروبولوجيا) وعلم الجمال (الاستاطيق) والنقد الادبي العلمي على اساس الواقعية الاشتراكية ، هذا مع اقراري بكل احترام بأن الدكتور النويهي اثبت ـ في مقاله التالي ، التوضيحي ـ انه يمتلك اساسا فيلولوجيا علميا لبناء هذه الدراسة . لكن فقه اللغة وحده لا يكفي في هذا المجال . انه بعد واحد ، من عدة ابعاد تتطلبها الدراسة التي اراد الدكتور القيام بها : دراسة حركة تطور المجتمع العربي الاسلامي في صدر الاسلام والعصر الاموي ، وصراع البداوة والقبلية الجاهلية ضد قيم ومبادىء الحضارة الاسلامية الناهضة . تلك هي

(*) الاناسة (Anthropologie) هو المصطلح الذي اعتمده قاموس « المنهل » للدلالة على العلم الذي يبحث في اصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته . (م. ع.)

موضوعته ، ولا يمكن لهذه الموضوعة الخطيرة ان تنحصر ضمن نطاق الادب وحده ، فضلا عن بضعة ابيات من الرجز او النقائض . لعل الدكتور النويهي يوجه هنا سؤالا : ولماذا لا يكفي علم الفقه وتنسيق النصوص ومقابلتها وتفسيرها وتحليلها واستبطانها واستنطاقها في هذا الصدد ، علما بانهذهالنصوص تعالج صميم الموضوع ـ « التمسك بالقبلية ضد روح الحضارة » ؟ الجواب واضح وهو : ان الدكتور لا يريد الوصول الى استنتاجات ادبية فقط من وراء حشده كل تلك العدة الوثائقية والنصوصية الشعرية ، والمستمدة خصوصا منمدرستي النقائض والرجاز ، بل هو يقصد اضاءة قضية اجتماعية يدفعه طموحه الى تسميتها « حضارية » . وهنا لا بد ان نعجز بضعة ابيات ، بل وكل دواوين شعراء تلك الحقبة ، عن خدمة الباحث المحترم في قيادة عمله . كانت تلزمه وسائل اخرى ، وعدة ثانية ، هي بالضبط تلك التي يدل بها عليّ ، ويلفت نظري انى نواقصي فيها ـ وعلى كل حال ، لا يوجد باحث مكتمل العدة في هذا المجال ، توجد درجات منالاستعداد والكفاءة واستيعاب الطريقة وصياغة المواد ، ومعرفة استخدامها للوصول الى الهدف المقصود . ولكن ليسمح تي اندكور بالقول ان النواقص والاخطار التي يوردها ناسبا اياها لي ولسواي من نقاد ماديين جدليين لم يسمهم الدكتور لكنه حاول جلدي ـ حبا طبعا ـ نيابة عنهم ، هي نواقص واخطار وهمية وغير صحيحة ، وعلى شيء من السذاجة ، في بعضها . مثلا تنبيهه تي بانني أجمد عند مرحلة سابقة من الواقعية الاشتراكية والمنهج الماركسي ، وانني أردد شعارات فارغة تجاوزها الزمن ، وذلك بصدد قولي : ان نصائح الدكتور النويهي التقريرية للشعراء الجدد ورؤيته لمجمل تجارب الشعر الجديد لم يكن فيها كبير غنى ولا شيء جديد . الدكتور يقول أن ثمة تحولا لدى الشعراء العرب المجددين ، من الاحاسيس الجماعية بصفتهم اعضاء في شعبهم الثائر ، الى الدوائر الحميمة الفردية من طرح مشكلات الوجدان . وللتدليل على هذه الموضوعة وتعزيز موقفه يستشهد الدكتور النويهي بأقوال ادباء سوفياتيين اصدقاء زاروا بيروت منذ اسابيع ونشرت « الآداب » عرضا للقاءاتهم الادبية والفكرية مع الكتاب اللبنانيين . ويقول الدكتور ان آراء الاصدقاء السوفياتيين تؤيد آراءه وتدحض تفكيري ، وانني جمدت بالتاكيد عند مرحلة معينة ماضية ، من تطور الواقعية الاشتراكية . وانني ما زلت اردد شعارات جماهيرية فارغة ، في حين ان الادباء السوفيات قالوا ان الشعر السوفياتي قد اخذ منذ حين يتحول من النزعة الجماهيرية الجرائدية الى التعبير عن الوجدانية الفردية الحميمة لدى الاشخاص . فأقول للدكتور محمد : بصرف النظر عن هذه الظاهرة ، فان حكمه عليّ بهذا النحو يدل على انه لم يقرأ جيدا كيفية نقدي لابحاث زملائه في العدد التالي من « الآداب » بعد نشر مقاله « الشعر والحضارة » . ارجو ان يقرأ مثلا فقرة « يوسف ادريس ... الى اين ؟ » حيث اناقش آراء الاستاذ احمد محمد عطية حول تطور ادب الدكتور يوسف ادريس وتفسير هذا الادب ايديولوجيا ، كما ارجو ان يكون الدكتور النويهي قد قرأ ردي على الاستاذ ابراهيم الجرادي في العدد الماضي من « الآداب » . وعلى كل حال ، وبصدد الموضوع الذي يثيره الدكتور النويهي ، بتحديد ، وعن غير حق ، أود أن اخبره بأن ظاهرة هذا التحول في الادب السوفياتي ، وهي ظاهرة جزئية ، على كل حال ، ويجب تقييمها بكثير من الاحتراس نظرا لاتساع وتعدد ابداعات الادب السوفياتي واختلاف مستوياتها وتعقدها وكبير غناها ، أقول ان ظاهرة التحول هذه لم تكن خافية عليّ ، حتى قبل زمن طويل من مجيء الكتاب السوفياتيين الاصدقاء كامل ياشين وسفرونوف ورفاقهما الى بيروت . والحديث الذي يستشهد به الدكتور سمعناه من افواه الاصدقاء السوفيات وجرى نقاش حوته وحول سواه من قضايا الادب الراهنة . لكن المشكلة هي ان كثيرا من الكتاب العرب لا سبيل لهم للاطلاع الوافي على اعمال بعضهم البعض . وبصراحة ، فلولا مجلة « الآداب » ربما ، ما كنت سمعت بناقد كبير يدعى محمد النويهي فضلا عن القراءة له ، والافادة من جهده القيم المتواصل . انني اكتب عادة في جرائد التقدميين اللبنانيين ومجلاتهم . وحين اصدرت مجلة « الطريق » اللبنانية عددا خاصا بمناسبة مرور خمسين عاما على قيام ثورة اوكتوبر ، كان نصيبي اعطاء صورة عن نشوء وتطور الادب السوفياتي عبر نصف القرن هذا من عمر بلاد السوفيات . وفي احدى فقرات دراستي في هذا الصدد ، المنشورة في مجلة « الطريق » المذكورة (العدد الرابع ، تشرين الثاني ـ كانون الاول ١٩٦٧) ورد ما يلي حرفيا : (ان صيغة بول ايلوار : « من أفق الشخص الواحد الى افق الجميع » هي صيغة معروفة . ان الادب السوفياتي ، بعد المؤتمر العشرين ، يعكس هذه الصيغة الآن ، اذا صح التعبير. فالاعمال الادبية التي صدرت في الآونة الاخيرة تسري فيها ارادة التغلغل الى كل بيت وداخل كل روح ، والشعور بالمسؤولية بالنسبة لحياة كل شخص يطرح مسألة ما يقدمه افق الجميع لافق كلشخص . انالاهتمام، في الروايات السوفيانية الصادرة منذ عشر سنوات ، قد تركز ، ليس على رؤساء الجماعات والشخصيات البارزة ، بل على جنود الثورة البسطاء ، على اولئك الذين كانوا يعتبرون اثناء فترة « عبادة الشخصية » اشياء التاريخ واغراضه . لقد أزالت حقائق الحياة الانقطاع الذي احدث بصورة مفتعلة اثناء تلك الفترة بينافراد الجمهور و « الشخصيات العظيمة ») الخ الخ .. من هذه الفقرة ، وامثالها من الفقرات في دراستي المذكورة ، أنني استغرقت زهاء عشرينصفحة من مجلة « الطريق » يتضح للدكتور النويهي انني حاولت ان لا اجمد عند مرحلة معينة من تطورات الواقعية الاشتراكية . بل اكثر من ذلك، فقد كنت منذ سنين ارصد القيم الهامة الابداعية في الانتاج الادبي والفكري السوفياتي وانقلها الى اللغة العربية ، وفيها كثير مما تنبه اليه مؤخرا الدكتور النويهي واعتبره ظاهرة جديدة ـ اعتمادا على آراء الادباء السوفياتيين الاصدقاء ، الذين زارونا في بيروت ـ اذكر على سبيل المثال ، فضلا عن عشرات وربما مئات المترجمات الجيدة ، والتي ليست كلها دعائية ولا خطابية ، اهتمامي بنشر بعض اعمال فسطنطين باوستوفسكي ، وهو ذو أسلوب قصصي صميم جدا ، وخاص جدا ، شاعري ، وحساس وملهم ، يمزج ما بين رومنطيقية عميقة الالوان وملحمية مستجنة ضمن لمسات تبدو بسيطة لاول وهلة ، ولكن تتكون منها لوحة كبيرة من مصائر ابطال ، وملاحم بناء وبطولة ، ونمزق اقدار وصراع ، كل ذلك يروى بنصف نون ، ونصف لمسة وايماءة ، على طريقة ناتالي ساروت في فرنسا ، ورسوم الانطباعيين . وادب باوستوفسكي ابعد الاشياء عن الخطابة والضجيج او الدعاية السافرة او المبطنة . ان اجمل دعاية لدى باوستوفسكي للواقع السوفياني الجديد هو ما يكشفه فيه من جمال وقيم جديدة . انه يصور الحياة بابداع وسحر ورؤية مدهشة في طرافتها وطابعها الشخصي . وقد اصدرت « دار الشرق » في القاهرة مجموعة قصصية ممتازة لهذا الكاتب السوفياتي العظيم ، كما ان الدكتور النويهي لا بد انه يعرف هذا الكاتب اذا كان يتابع مجلة « الادب السوفياتي » Lovriet litterature باللغة الانكليزية ، او Ouvre et opinions (اعمال وآراء) باللغة الفرنسية .

ولكن يجب القول ان وجود ظاهرة تحول من الطابع الجماعي الصارخ او المشدد على الاقل ، في الادب السوفياتي ، الى الطابع الشخصي الفردي الحميم ، وطرح مشكلات الفرد امام الكون والمصير ، ان وجود هذه الظاهرة التحولية في انتاج الادباء السوفيات اليوم ، لا يمكن ان يعني بالضرورة ان ذلك هو بالضبط ما يحدث عندنا . وأعيد الدكتور النويهي ، من اعتماد هذه الآلية في القياس واستنباط الاحكام ، مع ان هذا هو بالضبط ما فعله ، وأسفاه !

* * *

هناك نقطة ثانية ، يقول الدكتور محمد النويهي انني جمدتعندها

ـ التتمة على الصفحة ـ ٦٧ ـ

رد على الدكتور محمد النويهي

تتمة المنشور على الصفحة ـ ١٣ ـ

وهي فهمي ـ أو جمود فهمي ـ لموقف المادية الجدلية الراهنة من الدين . ويشير النويهي الى ان عددا متزايدا من المفكرين الماركسيين الاجانب انفسهم يحاولون ان يفبلوا ـ كما يقول الدكتور حرفيا ـ : « على ظاهرة التدين اقبالا جديدا وان يعقدوا معها المصالحة في سبيل تحقيق ما تنشده الانسانية من تجديد الفكر وتغيير الاوضاع وافرار السلام العالمي واسعاد ابناء البشرية في حياتهم الدنيوية » . ويتساءل الدكتور : أليس الاجدر بنا ، نحن العرب المسلمين ، ان نحتذي حذو اولئك المفكرين الماركسيين الاجانب ، لا سيما ونحن اكثر حاجة من بلدانهم (الى التآزر والتصافي ونبذ ما يفرق واعتماد ما يجمع ؟) . واريد ان الفت نظر الدكتور الى ان فهمه لهذه الظاهرة ليس دقيقا ـ وليسمح لي بهذا التأكيد ، وبهذه الصورة ـ فروجيه غارودي والمفكرون الماركسيون الفرنسيون والايطاليون الذين ربما كان الدكتور النويهي يعنيهم ، لم يكونوا يقومون بـ « مصالحة مع ظاهرة التدين في سبيل ... الخ » ، بل لقد اقاموا حوارا معها ، اي نقاشا كان يشتد الى درجة النقد الجذري العنيف احيانا . هذا فضلا عن ان اولئك المفكرين الماركسيين كان قد سبق لهم ان اصدروا كتبا انتقادية جذرية وعنيفة ضد الكنيسة الكاثوليكية واشتركوا في مساجلات حادة ضد منتقديهم الكهنة والعلماء الكاثوليك الخ ... وهذا شيء ما زال تحقيقه حتى الآن غير ممكن ، كما ينبغي ، ويا للاسف ، في بلداننا العربية . لا اقول ذلك لانني أجد لذة خاصة في انتقاد الدين والتعرض لقيمه واوضاعه والقيمين عليه ، الاجلاء . بل اقول ذلك لاقرر واقعا ، صارما وثابتا في هذا المجال وهو منع طرح مسألة الدين اصلا ، لا سيما في الاتجاه السلبي الانتقادي . بل بالعكس ، فهي تقول وتعمل على اساس انه يجب كسب المتدينين الى صفوف النضال الثوري بطرح القضايا الاجتماعية النضالية المصيرية امامهم . هذا فضلا عن ايضاح الحركات التقدمية دائما لاعضائها ان موقف الدين الاسلامي ورجاله من قضايا النضال التحرري العربي يختلف لصالح الاسلام عن مواقف بعض مؤسسات الكهنوت ورجال الدين الغربيين من قضايا شعوبهم وفئاتها الكادحة ضحية الاستثمار والاستلاب . وعلى كل حال ، ليست عندنا ، والحمد لله ، مؤسسات اسلامية كهنوتية تملك اسداس او ارباع مجموع الثروات والاراضي في بلداننا ، كما هي حال بعض الكهنوت في البلدان الرأسمالية . ورجال الدين المسلمون بصفتهم جزءا من جماهير البورجوازية الصغيرة بل والطبقات البروليتارية ، يشاركون في كثير من الاحيان في حركة النضال التحرري . ومثال الثورة الجزائرية ، بداية واستمرارا ، خير دليل على ذلك .

اذن ، ان موقف الحركات الماركسية الرسمية في البلدان العربية هو : لا ندخل في مسألة الدين . موقف ايجابي بصورة عامة في هذه القضية . وهنا لا بد وان يتساءل الدكتور النويهي مكررا اسئلته العديدة ، الساذجة والطريفة ، التحريضية ، والمفعمة بطيبة القلب ، في وقت معا ، الواردة في مقاله الماضي ، موضوع النقاش : اذن لماذا نغمز هكذا من قناة الدين ، قائلا ان « العرب هم الذين ابدعوا الاسلام ، جماهير قبائلهم وحضرهم » ؟ فاقول للدكتور النويهي ، انني مع كوني انتسب الى الحركة التقدمية اللبنانية ، القائمة على اساس المادية الجدلية ، فانني أحس بأن للحركة ثقة في لدى معالجتي أي موضوع مهما كان حساسا . لانها تثق عن تجربة طويلة بما أحاوله من اخلاص ورغبة في خدمة الشعب وحركة تحرره . لذلك اريد ان أوضح للدكتور النويهي نقطتين اساسيتين في صدد ما كتبته وفي صدد مفهومي لمسألة الدين في البلدان العربية وموقف النقد العلمي منها . اولا ، انا عاتب كثيرا على الدكتور النويهي لطريقته في توسيع كلمتي ، وتضخيم حجتها وكأنما يريد ان يجعل منها قبة ، ثم الاستطراد طوال صفحة ونصف صفحة من « الآداب » لمحاكمتي على كلماتي العابرة في هذا الصدد ، وكأنني امام محكمة مؤلفة من غلاة المتدينين المتحزبين . واكبر ما استغربه في هذا الصدد هو حساسية الدكتور الشديدة بهذا الخصوص مع انه يقول انه يتبنى المادية الجدلية ـ في شكلها المتطور ، حسب آخر طراز ! ـ والمادية الجدلية تقول بدراسة جميع الظاهرات الاجتماعية وتقديم حقائقها الى الشعب ، الى « الجماهير » ـ هذه الكلمة التي يبدو ان « المادي الجدلي » الدكتور النويهي لا يحبها كثيرا ـ . واريد ان اقول للدكتور النويهي وامثاله من الدارسين العرب ذوي القدرات التي لا تنكر : لقد آن الاوان للقيام بعملية نقد جذرية لهذا البعد من ابعاد تراثنا ـ الدين ـ واستخراج البذور الايجابية فيه ، وهي عديدة ، واستخدامها في حركة تقدمنا الثورية الاجتماعية ، واستبعاد الجوانب البالية التي تدعو حياة هذا العصر الى الخلاص من تعفنها . ذلك لا ينبغي أن يكون فقط الموقف المادي الجدلي ، بل لقد اصبح فعلا هو موقف الراديكاليين الليبراليين في المجتمع العربي . لكنني في معرض تعليقي على محاضرة الدكتور النويهي لم اقصد التطرق ، بالتأكيد ، الى مسألة الاسلام والدين الخ ، بل لقد التقيت مصادفة ببعض عبارات الدكتور المكتوبة فعلا بأسلوب بدا لي مثاليا ، غيبيا ، مقلوبا على رأسه ، ويسيء الى مجمل دراسة الدكتور النويهي ، فحاولت تقويمه جهد استطاعتي .

اما اذا كان الدكتور يصر على انه يتبنى المنهج المادي الجدلي ، لكنه في نفس الوقت لا يستطيع ان يقبل كلمة واحدة تخالف معتقداته الغيبية ، فهذه معضلة ثقافية واجتماعية يجب ان يجهد الدكتور ـ واريد هنا ان ابادله نصحا بنصح ، لانه وجه الينا ، انا واصدقائي النقاد الماركسيين كثيرا من النصائح ـ يجب ان يجهد للخلاص منها . على كل حال ، كما قال الدكتور في بدء معالجته لهذه النقطة ، فانها ليست مهمة . وانا بكل اخلاص لا ارى كبير اهمية ، في الوقت الحاضر على الاقل ، لتحقيق تلك العملية الانتقادية التي لا بد وان تجري يوما ما ، نظريا وعلى الورق ، لان المجتمع العربي ، في شطر كبير منه ، حققها فعليا وعلى ارض الواقع . ان بعض المظاهر السلبية في المجتمعات العربية الراهنة ، تمنع النويهي من ان يرى خط الثورة الكبير .

واريد ان اخالف الدكتور النويهي تماما في قوله ان الجماهير الاسلامية ، منذ بدء الدعوة حتى انتشارها الواسع ، لم تلعب دورا اساسيا في انتصارها . وكذلك في دعواه بان العصبية القبلية ظلت تسيطر كليا على المجتمع العربي ، وانها كانت هي السمة البارزة من سماته . كذلك اريد ان اخالفه في رأيه بصدد حدود الطريقة المادية الجدلية ، وقوله ان ميدان هذه الطريقة يجب ان يقتصر على موضوعات محددة ، لا يتعداها . كما اخالفه في رأيه بالجانب الشعري الافضل عند المتنبي ، ثم في مدى اهمية ابيات الرجز ونتف القصائد التي قدمها كي يثبت تمسك العرب بعصبياتهم حتى وهم يعيشون في صميم الحياة الحضرية . مع العلم ان لكل شاعر تقريبا من الرجاز او شعراء النقائض الذين استشهد الدكتور بهم قصائد اخرى مفعمة بالاحساس الحضاري الاسلامي الجديد .

واخيرا ، اريد التعليق بكلمة صغيرة على قول الدكتور ان المادية الجدلية منهج لا مذهب .

* * *

لو استخدم الدكتور المنظار الكلي ، ولم يسمح لنفسه بأن يضيع في تفاصيل الفصون بحيث خفي عنه منظر الغابة بكاملها ، لرأى بأوضح صورة ان الحركة الاسلامية انبثقت من اعمق اعماق الجماهير .

وان اكبر الفئات التي انضمت اليها وكانت هي دعامتها وقوتها الرئيسية ، هي السواد الكبير الباس من عرب مكة والمدينة اولا ثم سائر المدن والقرى والقبائل العربية . هذه حقائق معروفة وليست بحاجة الى برهان . ان الدكتور يؤمن بفكرة مثالية ، « كارليلية » اذا صح التعبير ، او « نيتشوية » ، اي انه يعتقد جازما ، وقد كتب ذلك مرارا حول رده موضوع نشأة الناس ، ان نخبة مؤمنة قليلة من الشخصيات المتفوقة هي التي استمرت تنصر الاسلام وتناضل من اجله في اعماق الجماهير حتى انتصرت الدعوة . هذه فكرة فصلا عن خطئها التاريخي ، تلامس ، في حالاتها السيئة ، النازية (ارستقراطية النخبة و « الاسود الشقر ») . وهي في حالاتها الاقل سوءا ، عبارة عن اوهام طوباوية وجاهل لمنشأ هذه النخبة الاسلامية الطليعية ، اي النبي وصحابته ثم جمهرة المسلمين بعدذلك.

اجل . اسأل الدكتور النويهي : من اين جاءت تلك النخبة المؤمنة التي دعمت النبي العربي ، عند بدء كفاحه ، واستمرت معه حتى « جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا » ؟ هل هبطت تلك النخبة من السماء هي ايضا ، مع الوحي ، بين ثنايا اجنحة جبريل الامين ؟ وسؤال اخر اكثر اهمية : كيف يتجاهل الدكتور عشرات الآلاف من المسلمين الذين خرجوا من شبه جزيرتهم ، على جياد الدعوة والفتح ، لينشروا الاسلام في ارجاء ما اصبح يشكل بعد ذلك بلاد الخلافة الاسلامية ، وافطار الوطن العربي ؟ جماهير المحاربين والمعمرين والمحدثين العرب هؤلاء ، كيف يتجاهلهم الدكتور النويهي ؟ الحقيقة هي ان هناك نظرة منهجية ، لدى الدكتور ، مضادة ، ان لم نقل معادية للجماهير . وننبهه - الذي لا يستطيع البرهنة عليه - الى ان الطابع الفردي الحميم واسئلة الفرد امام الكون ، هو العنصر الذي اصبح يسود القصيدة العربية الجديدة ، وانه ليس صحيحا ان نيارا توريا اجتماعيا ينتشر لدى الشعراء العرب المجددين (دائما الدكتور يفهم التيار الشعري الثوري ، على انه يعني الشعر الخطابي بالضرورة .) انما هو مستمد من نظرة منهجية ، رأيناها تتجلى مرة ثانية في انكاره دور الجماهير الاسلامية في حمل الاسلام وزيادة توسيع رقعته ونشره خارج الجزيرة العربية .

واليكم تتمة رأي الدكتور، بنصه الحرفي «بل الحقيقة هي ان الاستاذ عيتاني لا يزال يخضع لنظرة تقديسية مسرفة الى الجماهير وهي نظرة استبقاها من عهد الشعارات الرنانة والادعاءات الديماغوجية التي كانت الماركسية مضطرة اليها في اول ظهورها حتى تستميل اليها القوى الجماهيرية في محاولتها ان تحركها ضد مستغليها من الاقطاعيين والرأسماليين .

لكننا - والكلام ما زال للدكتور النويهي - لم نعد بنا اليوم حاجة ، بعد ان وضح المنهج المادي الجدلي وبين مدى ما فيه من الصحة التي يسلم بها كل مفكر نزيه وان لم يكن يتبع ذلك المنهج في كل تفاصيله » ! ! ! .

وهكذا ففي رأي الدكتور ، هذا « المادي الجدلي المنظور » الذي تحول مرارا اثناء مقاله موضوع النقاش الي والى سائر النقاد الماركسيين بالنصيحة لكي نكون ديناميكيين منظورين ولا نجمد عند مواقف خطأها التاريخ ، اقول وهكذا فحسب معلومات الدكتور النويهي فان « الماركسية في اول ظهورها استخدمت الشعارات الرنانة والادعاءات الديماغوجية لكي تستميل الجماهير ! » طبعا ، هذا قول اشبه بالافتراء، وقد خلط الدكتور فيه بوضوح بين ماركس من جهة، ولاسال وبرودون من جهة اخرى ، بين انجلس وبلانكي ، بين لينين وكروبوتكين. بين الماركسيين والفوضويين . ثم انظر كيف يطور الدكتور النويهي فكرته الطريفة هذه : « والان ، وبعد ان تبين مدى ما في المنهج المادي الجدلي من صحة ، فلم يعد ثمة حاجة للشعارات الطنانة » او كما قال . فماذا يعني الدكتور بتراكيبه الفكرية المدهشة هذه : هل يعني انه بعد ان اتضحت صحة المادية الجدلية يجب وقف النضال بين الجماهير ، من اجل توعيتها وتنويرها ؟ هل قرأ الدكتور عن حياة لينين وعن نضاله بين الجماهير وهل اطلع على بعض اعماله ؟ على كل حال ، لماذا تذهب الى ماركس ولينين : اريد ان اسأل الدكتور النويهي : اية قوة هي التي انقذت النظام التقدمي في المتحدة ، قاعدة الثورة العربية ، في ٩ حزيران ١٩٦٧ ؟ اهي اهرام الجيزة ، ام حديقتها ، ام ناديا جمال ، ام السيد قشطه ، ام الجماهير الشعبية الجرارة ؟

وينبع من هذه الفكرة ، التي اوضحت خطأها ، عند الدكتور النويهي مقولة اخرى ، اشد خطأ والتباسا حين يقول ان الشعب العربي المسلم ، في العقود الاولى من حياة الخلافة الاموية ، قد خضع لمبدأ « الفعل ورد الفعل » فعادت بعد الفتح جميع قبائله وفئاته الى التمسك بحياة البداوة . فهل نستنتج من هذا ، يا دكتور نويهي ، ان الاسلام ، بعد تلك الظاهرة الارتدادية - المبالغ فيها كثيرا عند الدكتور - جاء وكأنه لم يكن . واين هي الحقيقة ؟ .

الحقيقة هي ان الدكتور بوضعه المسألة كلها، على اساس اشعار الرجز والنقائض وبعض الصفحات من كتاب الاغاني - لا على اساس المادية التاريخية ، ودراسة العلاقات الاجتماعية الواقعية التي كانت حينئذ في حركة تطورية ، ملؤها الصعوبات والانتصارات ،وفترات التقدم والانتكاس.حركة الانهيار النهائي لنظام العبودية والقنانة ونشوء العهد الاقطاعي مع توازن بعدين اساسيين في المجتمع العربي الاسلامي ذلك العهد - البدو والحضر . القبيلة والعمران - ثم اتجاه جانب اساسي هو العمران للانتصار ، في مطالع العصر العباسي . انتجاهل الدكتور للعلاقات المادية الاساسية ، علاقات العمل والانتاج والعلاقة بالارض وملكيتها واستصلاحها وزراعتها والعلاقات التجارية وحجمها بالنسبة لمجمل التكوين الاجتماعي القائم والبناء الاقتصادي العامل، والتراكم الراسمالي هنا ذو علاقة كبيرة بمسألة التحضر ، او العودة الى القبلية . لكن اعتماد الدكتور النويهي في دراسته على بيت شعر - وهو احد الادلة والوثائق ولا شك - لكن تجاهله للسلعة والعمل وعلاقات الملكية والانتاج في تلك الفترة قد اوصله الى استنتاج عدمي مفرط في الخطأ : « عادت العصبية القبلية مجددا وبأعنف ما كانت عليه في الجاهلية » . هذا خطأ . والا فمن الذي عمر المجتمع الاموي، ثم المجتمع العباسي الشديد الازدهار - للطبقات العليا والوسطى على الاقل - ؟ اما تسمية الدكتور للحكم العباسي الناهض ، بـ«الثورة الفارسية » ففاية العجب لمن يعرف ولو اشياء قليلة عن حقائق تلك الفترة من التاريخ العربي والاسلامي . ان انهيار الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية قد تم نتيجة لتحالف ثلاث قوى رئيسية هي: العباسيون ، وهم كما تعلم يا دكتور ، عرب افحاح ، ينحدرون من بني العباس عم الرسول ، والعلويون - بزعامة ابراهيم بن المهدي - الزعيم العلوي وهم ايضا عرب افحاح لان اكثرهم ينتسب الى الحسين بن علي وابيه رضي الله عنهما ، بالاضافة الى انصارهم العرب . والقوة الثالثة هي الفرس بزعامة ابي مسلم الخراساني وقد استخدمت الدولة العربية الفرس استخداما ، وحين اشتد ساعدهم في ايام هارون الرشيد ، بزعامة جعفر البرمكي واتضح خطرهم على الخلافة العربية، ضربهم الرشيد كما هو معروف تلك الضربة القاصمة . المعروفة بـ « نكبة البرامكة » فالحركة العباسية ليست هي اذن ثورة فارسية يا دكتور نويهي . وما كان ينبغي لحركة انتهاء الخلافة العباسية ان تنعكس في ذهنك النير على بداياتها .

* * *

ومن جهة اخرى يقول الدكتور النويهي ان هناك نقادا ماركسيين عربا يعتقدون انهم لمجرد ان لديهم هذه العدة الماركسية فانهم يستغنون عن تعميق اختصاصهم ، ويسمحون لانفسهم ، اعتمادا منهم على

وهم اوجده لديهم انهم « ماركسيون » وهذا يكفيهم زادا وعتادا لكل بحث. يسمحون لانفسهم بمعالجة مواضيع الموسيقى والفن الريناسنسي والمسرحية الاغريقية واصول صنع الطعمية وما هب ودب من موضوعات لا يعرفون عنها شيئا كثيرا ، وكذلك ، فالدكتور يقول ان المنهج المادي الجدلي يجب ان يقتصر على بعض الموضوعات وليس من الضروري ان يعالج او يتمكن من معالجة جميع موضوعات الحياة الانسانية (!!)

بالنسبة للنقطة الاولى ، ارى الدكتور على حق احيانا . ولكن كم كنت اتمنى لو ضرب الامثلة ودعم كلامه بالاسانيد والاثباتات شأنه في الشطر الاول من مقاله . وقد اشار اولا الى تزاهتي وجدي في البحث واخلاصي في ما اكتبه لكنه قال اما في موضوع « المربد والحضارة والشعر » في العصر الاول الاموي فواضح ان العيتاني ليس له المام كاف في الموضوع . وفي هذا المجال لي الحق ان اعتبر ان الدراجة ذات العجلتين السليميتين افضل من قطار بلا دواليب .. ام لا ؟ هذا في حين ان الدكتور النويهي يوضح انه يقضي طوال الاعوام يدرس هذا الموضوع مع تلامذته في الجامعة (٥٠ ساعة تقريبا كل عام ، وان الصفحات القليلة وثلاث صفحات ونصف صفحة من « الآداب » التي نشرت عن هذا الموضوع ، وقمت انا بنقدها هي خلاصة لخمسين ساعة من البحث والكلام المتواصل كل عام . ولا ادري كيف يمكن ان يتصور القارىء هذه الخلاصة . ولكن فليقرأها بعنوان « الشعر والحضارة » وليقرأ نقدي لها ، وليحكم بعد ذلك . ومن جهة فقد صح ظني ، فالدكتور اعطانا في « الآداب » ما يعطي تلامذته في الجامعة من معلومات . وعلى كل حال اشكره لانه اعترف لنا بانهائنا مرحلة الدراسة الثانوية !

اما بالنسبة للنقطة الثانية وهي ان الماركسية لا تستطيع الا ان تقتصر على دراسة موضوعات محددة ، فهي فكرة لمكسيم رودنسون نشرها في العديد من المجلات ثم اوجزها في مقدمة لكتاب عبدالله العروي « الايديولوجية العربية المعاصرة » ، وفكرة النويهي ورودنسون تعود بالماركسية من كونها منهجا الى كونها مذهبا ، وهذا ما يقول النويهي انه لا يريده .

ومن جهة اخرى ، فلماذا الكلام المجرد ؟ فلنذكر ان الماركسية خاضت جميع ميادين العلوم والمعارف وابدعت فيها : في الاقتصاد ، والاجتماع ، والتاريخ ، وعلم النفس ، وعلم نفس الطفل ، والفيزياء ، وسائر العلوم المضبوطة ، وفي علم الحياة ، والعلوم الاجتماعية والانسانية ، الخ. واذا كان ثمة بعض التقصير في بعض الميادين فللظروف موضوعية وذاتية على حد سواء . ففي علم الجمال (الاستاطيق) السبب الاساسي للتقصير في صياغة نظرية ماركسية جمالية متكاملة حتى الان وعدم وجود مراجع اساسية كلية في هذا الموضوع هو اولا ، الاختلاف الفطري الاساسي بين مفهومي الفن وعلم الجمال في اوروبا الغربية (بما في ذلك الاوساط الماركسية) ومفهوم الشرق الاشتراكي ، الى حد ما ، والشرق السوفياتي بصورة اعم للعملية الفنية . في اوروبا الغربية نجد التركيز على الانطلاق في حركة تطورية جسورة . في جميع ميادين الفنون ، على اسس فردية ذاتية تتلبس الف نزعة وشكل ، ويصعب حصرها او مجرد الاشارة اليها بنزعة او مدرسة او اتجاه معين ، والتعمق الاختباري هنا يكاد لا يعترف باية ضرورة اجتماعية ، في حين ان الفن في الاتحاد السوفياتي وتنظيره في نهج الواقعية الاشتراكية هما شأنان اجتماعيان واحيانا يكونان من شان الدولة والحزب مباشرة . ثانيا ، واقتصر على هذا السبب الاساسي الثاني ـ اذ ثمة عدة اسباب ، ذاتية اخرى ، لا مجال لذكرها ـ هو عدم ظهور قدرات نظرية ابداعية وتركيبية كافية لدى مختلف المنظرين الجماليين الماركسيين ، حتى الافذاذ منهم كبليخانوف ، وتومبسون ، وفيشر ، ولوكاتش ، وغارودي ، واراغون . اما غورکي وبريشت فالتنظيرات التي صاغاها كانت هي في الحقيقة رسوما اولية لابداعات الكاتبين العظيمين . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، خضوع العمل الفني في الغرب لقانون السوق الراسمالية ، وخضوع الابداعات الفنية وتنظيرها الفكري والجمالي في الشرق الاشتراكي والسوفياتي لضغوط العهد الستاليني ، في بعض مراحله ، وقد تحررت الان ، لكنها ما زالت تعاني من اثار تلك الدوغمائية التي كادت تصبح مؤسسة تملك قدرات ذاتية مستقلة على التوالد والبقاء. اما خلاف ذلك ، فالمادية الجدلية منهج يا دكتور نويهي ، كما تنادي انت نفسك والمنهج يعني انه يجب ان يبحث كل شيء وتفحيص جميع ميادين النشاطات البشرية ، وجميع ظواهر الطبيعة ، من الذرة حتى اقصى المجرات والافلاك ، ومن الخلية حتى النيل والزرافة مرورا بـ « سوق المربد والحضارة » . وكلمة منهج هنا لا تعني طبعا منهجا مدرسيا ، موزعا على حصص ، ومحددا بساعات لا يتعداها ، وموضوعات لا يتجاوزها .

واخيرا ، فقد تطرق الدكتور النويهي في سياق حديثه عن الطابع الراهن لتجارب الشعراء العرب المجددين ، الى الرد على تساؤلي حول نوعية شعر المتنبي حسب مقاييس الدكتور النويهي . فاكد الدكتور في مقاله المسهب موضوع هذا النقاش على ان إبداع شعر المتنبي هو ذلك النوع الساجي العاطفي الحميم ، النابع من تجربة اسى ذاتية شخصية مثل قصيدته « عيد باية حال عدت يا عيد » مع ان التمثل بهذه القصيدة مغامرة نقدية ، اذ ان الطابع السياسي والاجتماعي والصراعي المأساوي ـ وهي اشياء غير العاطفة الساجية الحميمة ـ واضحة تماما في قصيدة « عيد باية حال » . ربما قال النويهي ان النبرة العامة للقصيدة هي كما حدد . وهذا صحيح، لكن المادية الجدلية تنظر الى اية ظاهرة في مجمل تناقضاتها ولا تحصر نظرتها في جانب واحد من جوانب الظاهرة . ورؤية النويهي للجانب الافضل في شعر المتنبي هي تدجين لشاعرية المتنبي العملاقة ، وذلك شيء مستغرب من ناقد في مثل وزن الدكتور النويهي وقدرته . اذا ماذا تساوي كل غزليات المتنبي وقصائده الحميمة الساجية اذا قيست بما قدمه ابو الطيب من صور ملحمية خالدة بوهج الفن العظيم لنضالات سيف الدولة الحمداني ومعاركه ضد هجمات الروم ، كل ذلك مصوغا في روائع لن تفنيها الادهار ، كقصيدته ((على قدر اهل العزم » الخ . .

واخيرا لقد كرر الدكتور مرارا على قوله وتنبيهه بان الماركسية « منهج وليست مذهبا » . لكنه ، واقولها باخلاص ، لم يطبق هذا المنهج ولا حتى ذلك المذهب في دراسته الاخيرة ، المكرسة للرد على نقدي لبعض افكاره . وما طبقه النويهي هو ما رآه القراء : خليط من افكار انتقائية لا يجمع بينها سوى المعية فكرية لدى صاحبها ، تستطيع ان تصوغها في بناء متكامل قد يغريك بقبوله والاغتباء بمضامينه ، ولكن لا يبقى منه شيء كثير عند تحليله على محك النقد الجدلي .

ولا بد لي في الختام من شكر الدكتور محمد النويهي لاهتمامه، بما كتبت ، وشدة تدقيقه في العرض والنقد والغربلة والتنخيل والطحن ... فالحقائق تنبع من هذه الطريقة ، ومن اساليب النقاش المماثلة. ان اروع ما في دراسة النويهي السابقة ، موضوع هذا الكلام ، هو ذلك الشرر الفكري . الذي يتحول الى قميص من نار مبدعة يلف سائر مقاطع الدراسة النويهية وتسري فيها كلها قوى خفية من حوافز الفكر والابداع . ان حماسة النويهي في الدفاع والبيان والبرهان، وما يرفده من منطق متوازن مستقيم وعلم غزير وذوق مكتمل ، قد اقامت بناء رائع الجمال ، وان كان قائما على اعمدة نحيلة ، اشبه بقصب « الغزار » . فكيف قام هذا البناء ؟ يجب ان اسال نفسي واسال الدكتور النويهي والقراء. واود ان أنهي كلامي بنصيحة واحدة، مقابل العديد من النصائح التي سخا بها علينا الدكتور النويهي ، انا وبعض زملائي النقاد الماركسيين ، هذه النصيحة هي ان يدرس النويهي الماركسية ، المادية الجدلية والمادية التاريخية ، ونظرية المعرفة الخاصة بهما ، دراسة جدية ، وحينئذ سيرى ان كثيرا من التعقيدات التي تواجهه في دراساته ، والتي يحس بها قارىء مقالاته ، ستزول ، مخلفة وراءها حلولا بالغة الغنى ، وافرة المسائل والقضايا ، هذا، واني اكرر تحية الاعجاب والتقدير المخلص والود الحميم الى الباحث الصديق .

محمد عيتاني